Coptology

جَسَدٌ وَاحِدٌ
وَأَعْضَاءٌ مُتَنَوِّعَةٌ حَسَبَ المَوْهِبَةِ

(١ كور ١٢: ١٢ - ٢٧)

دكتور

جورج حبيب بباوي

فبراير ٢٠١٤

www.coptology.org

ليس هذا شرحاً أو تعليقاً على كلمات رسول رب المجد يسوع، ولكنه قصة بداية تفتُّح الوعي الجديد على "الخلقة الجديدة"[١].

سألني القمص مينا المتوحِّد: هل تصلي معي صلاة استدعاء الروح القدس أثناء القداس الإلهي؟ وفوجئت بالسؤال. فقلت: لا. فقال لي: ليه؟ فقلت: لأنها صلاة الأب الكاهن. فقال: يعني لو كان ده صحيح، فلماذا يصلي الكاهن بلغة الجمع: "ارسل علينا وعلى هذه القرابين"، كما في سائر القداسات حتى في كنيسة الروم الأرثوذكس. ثم توقف عن الكلام، وقال لي: طيب صلِّ زي أبوك ما بيصلي: يا رب يا مَن تحوِّل هذا الخبز وهذا الخمر بروحك القدوس، حوِّل جسدي بروحك القدوس وبالشركة في جسدك ودمك لكي يكون جسدك وخادمك في هذا العالم. قول معايا وردد هذه الكلمات عدة مرات. وصارت هذه الصلاة صلاتي، وانفتح الوعي الداخلي على رؤيا أعظم وأكمل ...

وعندما سألته: كيف أُصبح جسد المسيح؟ قال لي: السؤال غلط. والسؤال الصح هو: لماذا وليس كيف؟ كيف هي اقتحام وتحديد لعمل النعمة، ولكن لماذا هي استفهام لطلب لمعرفة، وبعدين تفهم كيف. ثم قال لي: يا حبيب أبوك، أحد أسباب ومصادر الخطية في الإنسان هو أنه يشعر أن جسده هو مِلْكٌ خاص له، والرب الذي فدانا لا علاقة له بهذا الجسد. لكن يا ابني الطاعة الحقيقية وإخضاع الجسد للرب تبدأ بأن يصبح جسدك مِلْكاً للمسيح، ولذلك في استدعاء الروح القدس نحن نتحول مع

---

(١) "الخِلقة الجديدة" هو التعبير المفضَّل عند الأب متى المسكين، وهو الأصح لغوياً –من حيث تعبيره عما تم في التدبير– من تعبير "الخليقة الجديدة"؛ لأن الخِلقة بكسر الخاء هي الفِطرة، والفِطرة هي الابتداء والاختراع، والفعل فَطَرَ، أي خلق. فـ "الخِلقة الجديدة" هي عمل المسيح في الكون الذي تم بالتجسد، وهو عمل جديد في الكون كله حيث صار الكلمةُ جسداً، فيسوع هو الإنسان الجديد، الخلقة الجديدة. وحسناً قال القديس يوحنا الدمشقي: لا جديد تحت الشمس إلَّا ربنا يسوع المسيح.

الخبز والخمر لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً، كلٌّ مع الآخر ومع المخلِّص نفسه.

وتقدمتُ في الفهم قليلاً ... وتمر أيامٌ لا أدري عددها، وبدأ اهتمامي بالكنيسة جسد المسيح، وكان كتابا العنصرة والكنيسة الخالدة مثار جدل عقيم لا ينتهي. وللتاريخ فقط، لا من أجل أي إنسان مهما كان هذا الإنسان، أذكر أن قداسة البابا كيرلس السادس كان يشجع كل مَن يسأله على قراءة كتب الأب متى المسكين، و لم أسمع منه كلمة ذم واحدة في الكتب التي صدرت وقرأها، و لم يُصدر أي قرار خاص بها.

لكن التحول إلى جسد المسيح -كما جاء أعلاه- كان يُواجَه "بفكر غير كنسي". وكان التحذير الدائم الذي سمعته من القمص مينا المتوحِّد هو الحذر من "العقل الطبيعي غير المستنير بنور الروح القدس". وكان العقل الطبيعي لدى البعض - دون ذِكر أية أسماء- هو أن للرب جسداً واحداً هو الذي أخذه من العذراء. وهنا نلاحظ أن العقل الطبيعي قد توقف عند هذه الحقيقة التاريخية المعروفة للكل، ونسيَ أن المولود في بيت لحم هو:

- آدم الجديد، أو الأخير

- الله الكلمة المتجسد

- هو رأس الخِلقة الجديدة الذي جاء لكي يجمع كل شيء تحت رأسه كما ذكر الرسول في أفسس ١: ١ — ٣.

وهكذا ظلَّ تعدد جسد المسيح مسألةً بيولوجيةً غير سرائرية ***Sacramental*** بل ولا حتى على مستوى السر ***Mystery*** فقد أصبح "حِسبة"، تذكِّرني بالتسمية التي أثارت الكثير من الجدل "احسبها صح".

على أن قواعد الحساب في السر، ليست مثل قواعد الحساب في الرياضيات.

الحساب حسب السر

الواحد الذي يجمع هو الله الكلمة خالق كل الأشياء، الذي اشترك معنا في ذات الإنسانية (أحاول الابتعاد قدر الإمكان عن كلمة "طبيعة"؛ لأنها كلمة مجردة عقلية). والإنسانية، أي إنسانيته، هي المساحة المشتركَة، وهي الخط الواحد الذي يجمع الكلمة المتجسد بالإنسانية، ولكننا لا نتحدث هنا عن إنسانيته فقط؛ لأن أي حديث عن إنسانية الرب وحدها هو عودة إلى الأريوسية تحت غطاءٍ من تقوى مزيفة تنكر تجسد ابن الله.

التعبير الآبائي المُحكم

في شرح إنجيل يوحنا ١٠: ١٥ يقول القديس كيرلس السكندري:

"لأن كلمة الله وهو في الجسد، له الطبيعة الإلهية ونحن له أقرباء γένος رغم أنه الله بالطبيعة؛ لأنه أخذ ذات الجسد الذي لنا. لذلك فإن سكناه οἰκειότητος في الجسد يشبه سكناه فينا. وكما أن له علاقة خاصة ὡκείωται بالآب، والآب له ذات العلاقة الخاصة معه بسبب وحدة الطبيعة (الإلهية)، فإننا نحن لنا علاقة خاصة به لأنه صار إنساناً مثلنا؛ لأننا من خلاله باعتباره الوسيط μεσίτω قد أتْحَدَنا بالآب؛ لأن المسيح صار الحدود المشتركة μεθόριον ὡσπερ τι – *Common Frontier* بين الثالوث والإنسانية، للإلوهة الفائقة والإنسانية؛ لأن الاثنين (الإلوهة والإنسانية هما في الواحد ذاته يسوع المسيح)، فهو يحفظ أو يجمع كل الذين انفصلوا، وكإله بالطبيعة هو متحد بالله الآب، وكإنسان حقيقي هو متحد بالبشر" (مجلد ٢: ٢٣٢ – ٢٣٣ – Pusey – وراجع نفس التعبير عن الحدود

المشتركة في شرح يوحنا ١٤: ٦ مجلد ٢: ٤١٠).

والحدود المشتركة، هي ما يجمع الكلمة المتجسد بالبشر، والبشر معاً؛ لأنه يأخذ منا ما هو خاصٌ بنا τα ήων ιδικώς ويعطي لنا ما له τά έαυτού (راجع شرح يوحنا ٢٠: ١٧، مجلد ٣: ١٢٢ – ١٢٣)، أو حسب تعبير التسبحة القبطية: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"، وهي عبارة لا وجود لها عند الكنائس الأخرى الأرثوذكسية في التسابيح الأسبوعية، ونرجو ألَّا تفقد ما تقدمه لنا من نعمة الله[١].

الحدود المشتركة ليس الناسوت، أي الإنسانية وحدها؛ لأنها بذلك تكون تحديداً مضاداً للتجسد، بل هي ما جمعه الرب في كيانه أو أقنومه الواحد.

إذن ما هو الحساب حسب السر؟

* الجسد الواحد لا يتعدد؛ لأن التعدد والتكاثُر هو قانون بيولوجي خاص بالزواج. ومع نفي تعدد وتكاثر الجسد، يصبح من الواضح أن الجسد الواحد هو "جسد الوسيط" الذي "يجمع" ويوحِّد الكل في كيانه؛ لكي يكون الكل –وقد صارت له ذات الطبيعة الجديدة المجيدة– واحداً حسب النعمة ومتعدداً حسب قواعد حساب الرياضيات، أي تلك التي تجمع بالإضافة.

* أمَّا الجمع بالاتحاد، فهو جمع الذين صاروا مثل الابن، أي لهم ذات الصورة الجديدة (رو ٨: ٢٩)، وهولاء دُعُوا "إخوةً" بسبب المماثلة، أي لهم ذات الطبيعة، وهم حسب النعمة والمجد الإلهي "واحد".

* الحساب بالعدد يسقط أمام حجة الرسول بولس نفسه في ١ كور ص ١٢ كله، وهو أن الجسد له أعضاء متنوعة، ولكنه جسد واحد مصدره:

---

(١) راجع د. جورج حبيب بباوي، الشركة في الطبيعة الإلهية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٠٩ – ١١٩.

الحياة الواحدة = الجسد الواحد.

الروح الواحد والله الواحد والرب الواحد -وهي صيغة ثالوثية- يوزِّع العطايا المتنوعة التي تجمع الكل في الواحد يسوع المسيح لكي يكون الله "الكل في الكل" (١كور ١٥: ٢٨).

"احسبها صح" حسب السرائر

أولاً: الحساب الصح حسب السرائر هو: ربٌّ واحد، ومعمودية واحدة وجسد واحد وشركة واحدة في جسد الرب ودمه. والحديث الماكر الغامز الشرير عن الإفخارستيا لا يليق؛ لأنه موجَّهٌ ضد الرب نفسه، وله هدفٌ شرير، هو الهجوم على السر كما يُمارَس في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. وسر الأسرار هو شركة الجسد والدم.

وقد طالبنا بنهضة ليتورجية منذ ما يزيد عن ٢٥ عاماً وشرح لاهوتي للطقوس وليس الشرح الطقسي الذي يُغرق السامعين في الرمز؛ لأننا في حقيقة الأمر، ليس لدينا رمزٌ حسب الشرح الإنجيلي المتأخر في القرن ١٨، بل الرمز كعلامة تدل على ما هو حادث، وما يُعطى.

ثانياً: ولقد حدث تطرفين: الأول هو محور صلب الرب على الصليب بدون أي ذِكر لقيامة الرب، والثاني هو محور الروح القدس بدون الرب يسوع، وفصل عمل الروح القدس عن التجسد والصلب والقيامة.

بل دار حوارٌ مع أحدهم كان يريد حذف القطعة في القداس التي نصلي فيها: "لأننا فيما نحن نصنع ذِكر آلامه المقدسة ..." وأيضاً مرد الشعب: "أمين أمين أمين بموتك يا رب نبشر وبقيامتك المقدسة ..."، على اعتبار أن العشاء الرباني تم في العلية، وليس له علاقة أو صلة بالموت أو القيامة. ولَمَّا سألته: وهل ستحذف أيضاً صلاة

استدعاء الروح القدس، باعتبار أن الروح القدس حلَّ بعد خمسين يوماً لصعود الرب؟ صَمَتَ.

يبدو من هذا الحوار أن التاريخ أصبح هو سيد ومفتاح التدبير، أي خطة الخلاص، وأن كل ما يحدث في حياة الرب يمكن فصله عن غيره من الأحداث حسب موقعه في تاريخ الرب، وهو ما يؤدي إلى ضياع التدبير، وبالتالي يهدم هذا الفكر الشرير، الحدود المشتركة بيننا وبين الثالوث، بل تم تدمير عمل "الوسيط" نفسه الذي -كإله- يجمع الكل ويجعل الكل مثل إنسانيته التي أخذها من العذراء والدة الإله.

ثالثاً: واستخدام تعبير "ذبيحة الصليب" للإفخارستيا بوفرة، حجب القيامة، وأدخل في وعي السامعين أنها ذبيحة موت الرب عنا، لا ذبيحة موت الموت نفسه وقيامة الحياة وغابت كلمات ومعاني:

* الذبيحة الإلهية غير المائتة السمائية.

* الجسد المحيي الذي لأبنك الوحيد.

وهكذا جاء التعليم النسطوري الذي يقف خلفه عدد من الأساقفة (بكل أسفٍ) بأننا نأكل الجسد فقط، وليس لنا شركة في إلوهية الرب، نقول جاء هذا التعليم حرباً على الشركة في الطبيعة الإلهية، وقد تنطع أحدهم بالقول بأن تعبير الشركة في الطبيعة الإلهية هو تحريف لكلمات ٢ بط ١: ٤ في حين أنه لا يوجد مقال أو كاتب واحد نقل كلمات رسول المسيح: "شركاء الطبيعة الإلهية"، وحرَّفها إلى شركاء في الطبيعة الإلهية، لكن واقع الأمر أن الشركاء هم شركاء في شركة، وشركاء الطبيعة لا يشتركون إلَّا في الطبيعة. وما يجب أن ننبه إليه -مؤقتاً، لحين العودة إليه في مقال وافٍ- أن كلمة الله ليست نصَّاً يُشرَح حسب قواعد اللغة، بل حسب التدبير. ويكفي هنا للتدليل على ذلك عبارة واحدة من القديس كيرلس السكندري، يقول فيها: "إننا نشترك في البنوة الفائقة لأننا صرنا شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤)

بالشركة في الروح القدس" (شرح عب ٢: ١١ – شرح إنجيل يوحنا طبعة P.F. Pusey ص ٤٢٣). علما بأن حرف الجر διά في اللغة اليونانية أقوى بكثير من ἐν.

الحديث الأخير قبل نياحة البابا كيرلس السادس

لم نكن ندرس القديس كيرلس الكبير في الكلية الإكليريكية، وكان أول ما نُشِرَ باللغة العربية له هو كتاب "شرح تجسد الابن الوحيد". وكانت مخطوطة الترجمة قد رقدت في درج مكتب الأنبا شنودة عاماً كاملاً؛ إذ لم يكن لديَّ مال للطباعة، ولكن تطوع المتنيح الدكتور وليم سليمان قلادة بالطبع، وجمع هو بنفسه نفقات الطباعة والنشر بمساعدة أحد الآباء الكهنة الأفاضل –أرجو له الصحة والعافية– وصدر الكتاب وقدَّمتُ نسخةً منه للأنبا شنودة، ودُهشتُ لأنه صُدِم.

كان الحديث الأخير قبل نياحة البابا كيرلس السادس، وكنت عازماً على السفر إلى بيروت للعمل، وقال لي: يا ابني أكتب كتاب عن الكهنوت. ولما سألته عن السبب قال لي: الآباء الكهنة أخذوا مكان الرب يسوع. ثم قدمت له بحثاً عن الكنيسة جسد المسيح، فقال: فوت عليَّ بكرة علشان أكون قريته. وذهبت في اليوم التالي، فردَّ لِيَ البحث مع أسئلة كتبها باللون الأحمر، وقال لي: "جيد هتنشره فين؟" فقلت له: في مجلة مرقس، فقال: ده طبيعي، وصمتَ، ولكنه أضاف: "ده الموضوع اللي هيشغل قلب الكنيسة قول كمان ٥٠ سنة جاية"، ولم أُعلِّق، ولما شاهد الحيرة على وجهي، قال لي: "بكرة تعرف".

حسناً يا أبي، الذين يتركون الكنيسة بسبب التعليم هو نزيفٌ لن يقف إلَّا إذا توافرت ثلاثة أشياء:

* القدوة والمثال الصالح

* استرداد لاهوت القداسات والليتورجية

* استرداد تعليم الآباء بنشر كل ما لدينا -الآن وليس غداً- عن كل ما تعلمناه من كتب الآباء. فالترجمة وحدها لا تكفي.

وكفانا هجوماً على اتحاد اللاهوت بالإنسانية (الناسوت).

كفانا هجوماً على سكنى الروح القدس فينا.

كفانا هجوماً على شركتنا في المسيح يسوع.

كفانا غياب المحبة الثالوثية عن التعليم.

دون ذلك، ماذا يبقى لنا إلَّا الهجوم الذي يُشَنُ من على منابر الكنيسة القبطية الأرثوذكسية نفسها؟

دكتور
جورج حبيب بباوي
فبراير ٢٠١٤